

٤



بقلم
عبد الحميد عبد المقصود

رسوم
إبراهيم سمرة



كانَ الْفَتْحُ العربيُّ الْمُبارَكُ لِبلادِ الْمَغْرِبِ فَاتِحَةَ خَيْرٍ لأُورُبَّا ؛ فَقَدْ مَهَّدَ هذا الْفَتْحُ الطَّرِيقَ أمامَ الْجُيُوشِ الْعَرَبِيَّةِ الزاحِفَةِ مِنَ الْمَشْرِقِ الْعَرَبِيِّ ، وَالْمُتَّجِهَةِ نَحْوَ غَرْبِ الْقارَّةِ الأُورُبِّيَّةِ ؛ فَشَهِدَتْ بِلادُ الأَنْدَلُسِ كَثِيرًا مِنَ الْمَعارِكِ وَالْحَمَلاتِ الَّتِي قادَها نَفَرٌ مِنْ خِيرَةِ قادَةِ الإِسْلامِ الْعُظَماءِ .

مِنْ هَؤُلاءِ الْقادَةِ الْقائِدُ الْعَرَبِيُّ الْمُسْلِمُ (مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ) حاكِمُ مَدِينَةِ الْقَيْرَوانِ ، عاصِمَةِ الدَّوْلَةِ الإِسْلامِيَّةِ فِي بِلادِ الْمَغْرِبِ . . وَالْفارِسُ الْمُسْلِمُ الشُّجاعُ (طارِقُ بْنُ زِيادٍ) الَّذِي تَوَلَّى حُكْمَ مَدِينَةِ (طَنْجَةَ) الْمَغْرِبِيَّةِ بَعْدَ فَتْحِها عَلَى يَدِ قائِدِهِ (مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ) وَإِسْلامِ أَهْلِها مِنَ الْبَرْبَرِ . .

وَكانَ (طارِقٌ) بِالإِضافَةِ إِلَى ذَلِكَ قائِدًا مِنْ أَبْرَعِ قُوَّادِ (مُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ) .






وَكَانَتْ مَدِينَةُ (سَبْتَة) التَّابِعَةُ لِحُكْمِ إِمْبِرَاطُورِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ مُجَاوِرَةً لِمَدِينَةِ (طَنْجَة) الْمَغْرِبِيَّة .. وَكَانَتْ مَدِينَةُ (سَبْتَة) هِيَ الَّتِي تَفْصِلُ بِلَادَ الْمَغْرِبِ عَنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ .. وَكَانَ يَحْكُمُ (سَبْتَة) حَاكِمٌ تَابِعٌ لِإِمْبِرَاطُورِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ هُوَ (يُولْيَان) .. لَكِنَّ (يُولْيَان) كَانَ يُبْدِي طَاعَتَهُ وَوَلَاءَهُ لِـ (لَذْرِيق) حَاكِمِ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ نَظَرًا لِقُرْبِهِ مِنْهُ، بَدَلًا مِنْ طَاعَتِهِ وَوَلَائِهِ لِإِمْبِرَاطُورِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ التَّابِعِ لَهُ ..



ويَعْلَمُ القائدُ (طارقُ بْنُ زياد) بفطنته و ذكائه أنَّ جارَهُ (بُولْيان) حاكم مدينة (سبتة) برغم تظاهره بإبداء الطّاعة و الوَلاء للمَلك (لَذْريق) فإنّهُ يُكنُّ لَهُ حقدًا دفينًا ، وينتظرُ بفارغ الصّبر قدُوم اليَوْم الّذى سيثأرُ به من الملك (لَذْريق) حاكم بلاد الأنْدَلُس . .

ويَرْجعُ سَببُ الْحقْد الّذى يُكنّهُ (بُولْيان) لـ (لَذْريق) إلى أنّ (بُولْيان) قدْ أرْسَلَ ابْنتَهُ الْجميلةَ (فلُورنْدا) لتطْلُبَ الْعلْمَ فى بلاط (لَذْريق) فأُعجب بها واعْتدى علَيْها . .

ويَنْتهزُ (طارقٌ) فُرصةَ الْخلاف بيْنَ (بُولْيان) و (لَذْريق) فيُسارعُ بعقْد صُلْحٍ مع جارِه (بُولْيانَ) . . ثُمّ يُوطّدُ علاقَتَهُ به ، فيُصْبحان صَديقيْن حميمَيْن . .



وَيَعْلَمُ (بُولْيَان) مِنْ طَارِق أَنَّ الْعَرَبَ يَرْغَبُونَ فِى مَدِّ نُفُوذِهِمْ دَاخِلَ أُورُبَّا ، لِنَشْرِ الدِّينِ الإِسْلامِىِّ هُنَاكَ ، فَيَنْتَهِزُهَا (بُولْيَانَ) فُرْصَةً لِلنَّيْلِ مِنْ عَدُوِّهِ (لُذْرِيق) حَاكِمِ بِلادِ الأَنْدَلُسِ ..

وَعِنْدَمَا يَجِدُ (بُولْيَانَ) اسْتِجَابَةً مِنْ (طَارِق) لِمَدِّ الْفَتْحِ إِلَى بِلادِ الأَنْدَلُسِ ، يَعْرِضُ عَلَى (طَارِق) مُسَاعَدَتَهُ فِى الْفَتْحِ ، بِأَنْ يَمُدَّهُ بِالسُّفُنِ اللاَّزِمَةِ لِعُبُورِ الْبَحْرِ ، وَنَقْلِ الْجُنُودِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى شَوَاطِئِ الأَنْدَلُسِ ..

يَفْرَحُ (طَارِقٌ) بِهَذَا الْعَرْضِ مِنْ جَانِبِ (بُولْيَانَ) فَرَحًا عَظِيمًا ، وَيَذْهَبُ إِلَى قَائِدِهِ (مُوسَى بْنِ نُصَيْر) طَالِبًا مِنْهُ الإِذْنَ بِفَتْحِ بِلادِ الأَنْدَلُسِ فَيَأْذَنُ لَهُ (مُوسَى بْنُ نُصَيْر) وَيُزَوِّدُهُ بِجَيْشٍ قِوَامُهُ سَبْعَةُ آلافٍ مِنَ الْجُنُودِ الْمُسْلِمِينَ ، مُعْظَمُهُمْ مِنَ الْبَرْبَرِ الَّذِينَ دَخَلُوا الإِسْلامَ بَعْدَ الْفَتْحِ الْعَرَبِىِّ لِبِلادِ الْمَغْرِبِ .

يُوَدِّعُ الْقَائِدُ (مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ) جُنُودَ الإِسْلامِ الْمُتَّجِهِينَ إِلَى شَوَاطِئِ الأَنْدَلُسِ بِقِيَادَةِ (طَارِقِ بْنِ زِيَادٍ) ..

وَيَعْبُرُ (طَارِقٌ) مَعَ جُنُودِهِ مِنْ بِلادِ الْمَغْرِبِ إِلَى الْجَبَلِ الَّذِى يُعْرَفُ حَتَّى الْيَوْمَ بِاسْمِ (جَبَلِ طَارِقٍ) وَبِذَلِكَ يَضَعُ الْعَرَبُ أَقْدَامَهُمْ لأَوَّلِ مَرَّةٍ فِى بِلادِ الأَنْدَلُسِ ..



وَ يُصْدِرُ (طارِقُ) أَوامِرَهُ إلى قُوّادِ جَيْشِه بإحْراقِ جميعِ السُّفُنِ وَ الْمَراكِبِ الَّتِى عَبَروا فيها ، حتَّى لا يُفَكِّرَ أحَدٌ مِنْ جُنُودِه فى الْفِرارِ أو التَّراجُعِ أو الإنْسِحابِ مِنْ مَيْدانِ الْقِتالِ ، فيُقْبِلُونَ على قِتالِ عَدُوِّهِمْ ، وَلَيْسَ أمامَهُمْ سِوَى الاسْتِبْسالِ فى الْقِتالِ لتَحْقيقِ النَّصْرِ ، أو الشَّهادةِ فى سَبيلِ نَشْرِ دينِ اللّهِ ورَفْعِ رايَةِ الإسلامِ فَوْقَ رُبُوعِ أسْبانْيا .

وَ بَعْدَ أنْ عَبَّأَ طارِقُ جُنُودَهُ بالإيمانِ وَ الْحَماسِ ، قادَهُمْ إلَى قَرْيَةِ (قَرْطَاجَنَة) فتَصَدَّى لَهُمْ جُنُودُ الأنْدَلُسِ ، فاشْتَبَكَ مَعَهُمْ جُنُودُ الإسلامِ ، واشْتَدَّ الْقِتالُ بَيْنَ الْفَريقَيْنِ . .





وبرغم قلة عدد جنود طارق ، وضآلة تسليحهم ، فقد تمكنوا من هزيمة جنود الأندلس ، وانتزعوا منهم غنائم كثيرة ، كان أهمها الخيل التى كان يحتاج إليها طارق لتدعيم جيشه بالفرسان . .

وتصل الأخبار بسرعة إلى (لذريق) ملك الأسبان (والذى كان فى ذلك الوقت فى العاصمة (طليطلة) بعد العدة للقاء جيش طارق) ، ويعلم بهزيمة جنوده فى (قرطاجنة) فيملؤه الغيظ و الغضب ، ويصدر أوامره إلى جيشه المكون من خمسين ألفا بسرعة التحرك لمقابلة جنود الإسلام خارج العاصمة (طليطلة) . .

وفى نفس الوقت تصل إمدادات لجيش (طارق) من قائده (موسى بن نصير) استعدادا لهذا اللقاء المرتقب بين جنود (لذريق) وجنود (طارق) . .

وتتراءى على البُعْدِ جُمُوعُ جيْشِ (لذْريق) وهي تزْحفُ بأعْدادها المَهُولة ، فيدُبُّ الخوفُ والفزعُ في نُفُوسِ جُنُود (طارق) لمَا رأوْهُ منْ كثْرة عدُوِّهم ، وتفَوُّقه في الأسْلحة والعُدَّة . .

فلمّا رَأى (طارقٌ) ذلكَ منْ جُنُوده سارعَ يبُثُّ الطُّمأنينةَ والحماسَ في قُلُوبهمْ ، فوقفَ فيهمْ خطيبًا وقالَ كلمتهُ الحاسمةَ الشُّهيرةَ :

« أيُّها النَّاسُ : أيْنَ المفرُّ . . العدُوُّ أمامكُمْ ، والبحْرُ منْ خلْفكُمْ ، وليْسَ لكُمْ واللهِ إلا الصِّدْقُ والصَّبْرُ » . .

وتعْملُ خُطْبةُ طارق عملَها في بثّ روحِ الحماس والاستبْسال في نُفُوسِ جُنُود الإسْلام ، فيسْتعدُّونَ للقاءِ عدُوِّهمْ بقُلُوب يمْلؤُها الإيمانُ والرَّغْبةُ في تحقيقِ النَّصْر .

وتتراءى لـ (لذريق) على البُعد طلائع جيش الإسلام، فيرسل رجاله للاستطلاع والتجسس، لمعرفة حجم جيش الإسلام وتقدير معداته واستعداداته للقتال.. ويعودُ رجالُ (لذريق) وقد هالهم وراعهم ماراوْه من بسالة جند الإسلام، واستعدادهم للقتال..

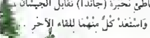
ويسأل (لذريق) رجاله الذين قاموا بعملية الاستطلاع عما رأوه، فيقول له أحدهم:

"لقد جاء من جنود الإسلام من لا يريد إلا الموت، أو إصابة ما تحت قدميك..

ويتعجب (لذريق) مما سمعه من جواسيسه ورجال استطلاعه، ويظن أنهم يبالغون في تقدير مدى الروح المعنوية العالية لجند المسلمين، واستعدادهم للقتال..

وعند مكان في (أسبانيا) يسمى وادي (لكة) على شاطئ بحيرة (جاندا) تقابل الجيشان..

واستعد كلٌّ منهما للقاء الآخر..







قَسَّمَ (طَارِقٌ) جُنُودَهُ عَلَى هَيْئَةِ صُفُوفٍ مُتَرَاصَّةٍ ، وَكَانَ جُنُودُ الإِسْلامِ يَتَمَيَّزُونَ بِالْمَلابِسِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْعَمَائِمِ الْبَيْضَاءِ . .

وَقَسَّمَ (لَذْرِيقُ) جُنُودَهُ عَلَى هَيْئَةِ (كَرَادِيس) تَتَكَوَّنُ مِنْ مَيْمَنَةٍ وَمَيْسَرَةٍ وَقَلْبٍ . . وَكَانَ (لَذْرِيقُ) هُوَ الَّذِى يَقُودُ قَلْبَ الْجَيْشِ بِنَفْسِهِ . . بَيْنَمَا جَعَلَ عَلَى كُلٍّ مِنَ الْمَيْمَنَةِ وَالْمَيْسَرةِ قَائِدًا مِنْ أَبْرَزِ قُوَّادِهِ .

وَقَدْ ظَهَرَ (لَذْرِيق) بَيْنَ جُنُودِهِ فَوْقَ سَرِيرِ مُلْكِهِ ، وَالسَّرِيرُ مُمَدٌّ بَيْنَ بَغْلَتَيْنِ تَحْمِلانِهِ ، وَعَلَيْهِ تَاجُ مُلْكِهِ ، وَقَدْ ارْتَدَى قُفَّازَهُ ، بَيْنَمَا يَمْتَدُّ فَوْقَ رَأْسِهِ رِوَاقٌ مِنَ الْحَرِيرِ يُظَلِّلُهُ مِنْ حَرَارَةِ الشَّمْسِ ، وَحَوْلَهُ غَابَةٌ مِنَ الْبُنُودِ وَالأَعْلامِ وَبَيْنَ يَدَيْهِ حُرَّاسٌ مُدَجَّجُونَ بِالسِّلاحِ ، وَفُرْسَانٌ بِمَلابِسِهِمُ الْمُزَرْكَشَةِ . وَكَانَتْ ثِيَابُ (لَذْرِيقَ) الْمُزَرْكَشَةُ مُرَصَّعَةً بِالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ وَالزَّبَرْجَدِ . كَمَا أَنَّ خُفَّهُ كَانَ مَصْنُوعًا مِنْ أَلْيَافِ الذَّهَبِ وَكَأَنَّ (لَذْرِيق) ذَاهِبٌ فِى رِحْلَةٍ أَوْ نُزْهَةٍ . .


وَعَلَى الْعَكْسِ مِنْ (لُذْرِيق)
كَانَ (طَارِقٌ) يَنْطَلِقُ بِفَرَسِهِ بَيْنَ
جُنُودِهِ لِيُحَمِّسَهُمْ عَلَى قِتَالِ
عَدُوِّهِمْ ..
وَأَخِيرًا ..

الْتَحمَ الْجَيْشانِ ، ودارَ بَيْنَهُما الْقِتالُ عَنيفًا ، حتّى ظَنَّ كُلٌّ منَ الْفَرِيقَيْنِ أنَّهُ الْفَناءُ ..

وكَانَ جُنُودُ (طارِقٍ) هُمُ الّذين بَدَءُوا الْهُجُوم ، وَهُمُ الّذين اسْتَمَرُّوا فى هَجَماتِهِمُ الْمُسْتَمِرّةِ علَى جُنُودِ (لُذْريق) ..

انْقَضُّوا أوّلاً على مَيْمَنَةِ جَيْشِ (لُذْريق) فهزَمُوهَا .. ثُمَّ رَكّزُوا ضَرَباتِهِمْ وهَجَماتِهِمْ علَى الْمَيْسَرَةِ ففرّقُوها .

وثَبَتَ الْقَلْبُ قَليلا وبه (لُذْريق) محْمُولاً فَوْقَ سَريرِ مُلْكِه يَبُثُّ الْحَماسَ فِى جُنُودِه ، لَكنّهُ مالَبِثَ أنْ هُزِم وتقَهْقَرَ ..



وَأَخِيرًا نَزَلَ (لَذْرِيق) عَنْ سَرِيرِ مُلْكِه ، وَامْتَطَى جَوَادَهُ الأَشْهَب لِلدِّفَاعِ عَنْ نَفْسِه ، بَعْدَ أَنْ قُتِلَ حُرَّاسُهُ . .

وَلَمَّا أَدْرَكَ (لَذْرِيقُ) بَعْدَ هَزِيمَةِ جَيْشِهِ وَتَفَرُّقِ جُنُودِهِ ، أَنَّهُ لا نَجَاةَ لَهُ إلا بِالْفِرَارِ مِنْ مَيْدَانِ الْمَعْرَكَةِ . . قَادَ جَوَادَهُ بَعِيدًا . . وَفِي نَفْسِ اللَّحْظَةِ الَّتِي حَاوَلَ فِيهَا (لَذْرِيقُ) الْفِرَارَ مِنَ الْمَعْرَكَةِ ، لَمَحَهُ أَحَدُ الْفُرْسَانِ الْمُسْلِمِينَ ، فَأَسْرَعَ خَلْفَهُ . .

وتدورُ مُبارزةٌ عنيفةٌ بيْنَ (لذْريق) والفارسِ المُسْلمِ . .

ويكادُ الفارسُ المُسْلمُ أنْ يتغلَّبَ علَى (لذْريق) ويَقْتُلَهُ ، لكنّ (لذْريق) يُغافِلُهُ ، ويفرُّ بحوادِه تجاهَ نهرٍ صغيرٍ . ويَنْدفعُ الفارسُ المُسْلمُ خلْفَ (لذْريق) مُحاولاً أسرهُ ، لكنَّ جوادَ (لذْريق) يَنْدفعُ إلى منطقةٍ مُوحلةٍ بالطِّين ، وتغوصُ قوائمُ الجوادِ فى الوَحْلِ ، فلا يستطيعُ التَّقدُّمَ خُطْوةً واحدةً . .

ويُلاحظُ (لذْريق) أنَّ الفارسَ المُسْلمَ جادٌّ فى أسْرهِ و الظَّفرِ به ، فَيَنْدفعُ إلى الماءِ ، ويغوصُ ، فَيجْرِفُهُ تيَّارُ النَّهرِ ويغرقُ ، بيْنما يعْثُرُ الفارسُ المُسْلمُ على جوادِ (لذْريق) وفَرْدَةٍ منْ حذائهِ الذَّهبىِّ . .





وينْدفعُ الْفارسُ الْمُسْلمُ بيْن صُفُوف الْمُسْلمين مُمْسكًا حصان (لذْريق) وفرْدة حذائه الذّهبيّ ، وصائحًا :

لقدْ قُتل الطّاغيةُ (لذْريق) .

ويُطْلقُ الْجُنُودُ الْمُسْلمُون صيْحات التّكْبير والتّهْليل ، ويُقْبضُون بحماس على منْ بقى منْ جُنُود (لذْريق) فيفرُّون هاربين منْ ميْدان الْمعْركة ..

ويتعقّبُهُمُ الْجُنُودُ الْمُسْلمُون بالْحراب والسّهام فى ظُهُورهمْ ، فيقْتُلُون كثيرين منْهُمْ ويأْسرُون آخرين

ويتْرُكُ جُنُودُ (لذْريق) الْهاربُون وراءهُمْ مُعسْكرًا مملُوءًا بالأسْلحة وعُدد الْحرب والزّاد والْخُيُول والْماشية والتُّحف والْجواهر والآنية الذّهبيّة ، فيسْتوْلى جُنُودُ الإسْلام على كُلّ هذه الْغنائم ، ويُقيّدُون الأسْرى بالسّلاسل




بعْد هذه المعْركة الْحاسمة والْفاصلة ، والّتي كُلّلتْ بالنّصْر لجنُود الإسْلام ، يقُومُ (طارقٌ) بإتْمام فتْح بلاد الأنْدلُس ، فيعْمل على تقْسيم جيْشه إلى أرْبع فرق ، لتنْطلق فاتحة بقيّة بُلْدان الأنْدلُس الّتي لمْ يتمّ فتْحُها بعْدُ . .
فالفرْقةُ الأولى مُكوّنةٌ منْ سبْعمائة فارس
ويقُودُها الْفارسُ الْعربيُّ الشُّجاعُ (طريفٌ) .

وقدْ وجّهها طارقٌ لفتْح مدينة (قُرْطُبة) الّتى صارتْ بعْدَ الْفتْح عاصمةَ الْحُكْمِ الْعربىّ الإسْلامىّ فى الأنْدلُس .

واتّجهت الْفرقةُ الثّانيةُ لفتْح مدينة (غرْناطة) .

والْفرقةُ الثّالثةُ اتّجهتْ لفتْح مدينة (مالقة)

أمّا بقيّةُ الْجيْش فقدْ قادهُ (طارقٌ) بنفْسه ، واتّجه إلى الْعاصمة (طُلَيْطلة) فتحها . .

وبهذا الْفتْح الْمُبين خضعتْ بلادُ الأنْدلُس كُلُّها لحُكْم الْعرب الْمُسْلمين ثمانية قُرُون ، كانتْ سبَبًا فى ازْدهار أسْبانيا وازْدهار أوربّا بالْحضارة الْعربيّة الإسْلاميّة .

وظلّتْ الْعاصمةُ (طُلَيْطلةُ) تشعُّ نُور الإسْلام على ماحوْلها من الْمُدُن والْبقاع طوال ثمانية قُرُون هى مُدّةُ حُكْم الْمُسْلمين لبلاد الأنْد

(تمت بحمد ا